مجلة مداد الآداب

الجامعة العراقية
كلية الآداب
قسم التاريخ
1425هـ 2005م
Department of History

الهوية والمقاومة الثقافية عند إدوارد سعيد

د. حسين حيمر
جامعة: ابو بكر بلقايد تلمسان/ الجزائر

المقدمة

إدوارد وديع سعيد لمن لا يعرفه هو ذلك المفكر الفلسطيني الأمريكي المتنقل بمعاركه السياسية والثقافية والاجتماعية من منبر لآخر، فهو المناهض للعواطف، والمزعج للسلطة، والمدقق في سرديات الإمبريالية، والمستعد دائما لتحدي الكذب المسلح ومؤازرة الصدق، لقد قضى سعيد طفولته متنقلا بين القدس ــ حيث ولد في ١٩٣٥ ــ والقاهرة وبيروت وكان بوسعه أن يدرك تمام الإدراك أنه في وضع مادي ومعيشي أفضل بكثير من أوضاع الغالبية الساحقة من أقرانه الفلسطينيين الذين أجبروا على مغادرة ديارهم في نكبة ١٩٤٨ وشردوا في شتى بقاع الأرض ليعيشوا محنة اللجوء، وبعد حوالي أكثر من نصف قرن من الزمن على حدوث النكبة، كان سعيد يعرف نفسه قائلا: " أنا لست مهاجرا ولكنني أعيش منفيا في انتظار العودة ". [١]

وتجدر الإشارة في هذه العجالة، أنه عندما أتيح لسعيد ولأول مرة منذ النكبة أن يعود إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة زائرا في نهاية عام ١٩٩٢، أي أكثر من أربع وأربعين سنة، بدا سعيد شديد الحرص على رؤية البيت الذي ولد فيه في ١٠ شارع برينر في حي الطالبية، واتسمت انطباعاته المكتوبة في البعض من كتاباته عن هذه الزيارة بالتأثر العاطفي البليغ.

غير أن إحساس سعيد بالمنفى لم يفارق مخيلته ولا كتاباته ولا مداخلاته المختلفة في أكثر من مأتي جامعة في العالم قط، إذ أصبح ذلك الشعور أكثر تركيبا وتعقيدا من مجرد حرمان من الوطن فقط، بل صار سعيد يعيش في الواقع في ظل المتناقضات والأضداد التي ولدت لديه ظواهر سيكولوجية انفعالية، مثل شعوره بالعيش المستمر في غير مكانه (خارج المكان)، وهي التسمية التي أطلقها كعنوان على الكتاب الذي دون فيه سيرته الذاتية، حيث يشرح فيه كيف شكل له اسمه " إدوارد " ــ الذي اختارته له أمه تيمنا بأمير بلاد الغال ــ قلقا شديدا ومشكلة عويصة لاقترانه بلقب العائلة " سعيد "، فقد كان سعيد يتلاعب بنطق هذا التركيب الغريب، فهو ثارة يضغط على اسم إدوارد، ثم ينطق سعيد بسرعة، وثارة أخرى يقوم بالعكس، ليظهر اللقب العربي على حساب الاسم الإنجليزي، وهذا ما حتم على سعيد العيش ديمومة متدفقة في ازدواجية بين لسانين (اللغتين العربية والإنجليزية)، ومكانين (فلسطين وأمريكا). [٢]

إذن كان من الطبيعي أن تتولد في باطن حياة سعيد النفسية والوجدانية مشاعر متباينة، قد تكون متناقضة، بسبب تداخل هذه الظواهر النفسية المتولدة عن هويته الفلسطينية الأصلية

التي اكتسبها بالمولد، وقوميته العربية التي تجدرت فيه من خلال شعوره بها لتردده الدائم على مدن عربية عظيمة الشأن كالقاهرة وبيروت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، هذا بالإضافة إلى جنسيته الأمريكية التي اكتسبها من أبيه وديع الذي كان قد شارك في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الأولى، مع العلم أن وديع لم يكن حريصا على غرس بذور الانتماء العربي لدى ولده إدوارد.

ففي ظل هذه التراكمات ندرك أشد الإدراك، معاناة سعيد من مشكلة التداخل والتزاحم والتقاطع بين الهويات التي احتلت مكانة شاسعة في كتاباته وأعماله، ولهذا كان يتمنى كما يقول: " لو كنا جميعا عربا كاملين، أو كنا أوروبيين كاملين أو أمريكيين كاملين أو مصريين كاملين "، [٣] وفي نفس السياق يقول سعيد: " ولقد امتلكني هذا الشعور المقلق بتعدد الهويات ــ ومعظمها متضارب ــ طوال حياتي ". [٤]

ورغم ذلك الشعور الدائم لدى سعيد بالعيش خارج المكان لم يحل بينه وبين اختياره الواعي والإرادي لهويته العربية، وإعادة اكتشافه لهويته الفلسطينية في مرحلة تبلور الحركة الوطنية الفلسطينية بعد هزيمة ١٩٦٧، وبتعبير أوضح قرر سعيد بأنه عربي بالاختيار من خلال عملية إرادية واعية. وعليه فقد أثر ذلك الشعور تأثيرا كبيرا على مساره الفكري والمهني الأكاديمي، ودفعه في ذات الوقت إلى الاعتناء أكثر بتأصيل قضية الانتماء والهوية في كتاباته ودراساته، فهو على سبيل المثال لملم يختار بالصدفة موضوع أطروحته للدكتوراه التي تحصل عليها من جامعة هارفارد الشهيرة عام ١٩٦٣ في الأدب المقارن والموسومة بعنوان " جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية ". لقد روى سعيد في هذه الأطروحة حكايته الشخصية، كفرد مرتحل في الجغرافيا وعلى ضفاف الثقافات، من هنا اقترنت وتقاطعت حكايته بحكاية كونراد، ورغم أن هذا الأخير اختار منفاه بذاته، كما اختار الانتماء إلى الثقافة الإنجليزية بمحض إرادته، في المقابل من ذلك، اضطر سعيد لاختيار الثقافة الغربية عامة والإنجليزية خاصة من قبل والديه، وشرد من وطنه فلسطين، مثل باقي أفراد عائلته الكبيرة، والآلاف من الأعداد من الشعب الفلسطيني، بسبب إرهاب الدولة الصهيونية ونشأة دولتها الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية التاريخية المغتصبة بقوة الحديد والنار، ولكن الفرق شاسع بين كونراد وسعيد، ففي الوقت الذي كان فيه الأول كمنفي ومقتلع من أراضي بولونيا يذوب وينصهر في الثقافة والمجتمع

الإنجليزيين، كان الثاني يعطي سيرته الذاتية بعدا كونيا ومسحة إنسانية بليغة العمق في الجمهور الغربي الذي كان يوجه له خطابه، خاصة إذا علمنا بأن سعيد كان حريصا في كل ما كتبه من نقد ودراسات ثقافية ومقالات سياسية وغيرها، على البعد الدنيوي للثقافة، وعلى هذا الأساس كان اتصاله ملتحما بين الكتابة والعيش في العالم، يقول سعيد عن كونراد وكأنه يتحدث عن نفسه: "حين نقرأ عن كونراد نشعر بثقل الإحساس بالاقتلاع وعدم الاستقرار والغربة، لا أحد يستطيع أن يصور مصير الضياع والخسران مثله "، [٥] حتى أصبح كونراد ثيمة أساسية في كل أعمال وكتابات سعيد تقريبا، كما لم يكن غريبا أن يكرس سعيد عددا من أعماله الأساسية للدراسة والتأمل في مسألة المنفى وعلاقتها بالهوية والسياسية والقومية.

لعبت نزعة سعيد الإنسانية ومواقفه الشجاعة وروحه الحرة وحضوره الشخصي الآسر دورا كبيرا في ذيوعه وانتشاره، لكن الأكثر إدراكا لفاعلية هذا المفكر الكوني، هم اللذين عملوا بلا هوادة على تحريض الكونغرس الأمريكي على سن قوانين يمنع تكرار نموذج إدوارد وديع سعيد أو كما يحلو للبعض القول " إدوارد سعيد الطاهرة "، إنهم يريدون التأكد من موته النهائي لأن غيابه عن هذا العالم لا يكفيهم لانتهاء المعنى المادي الجسدي لسعيد، ولا انتهاء فكره فحسب، بل إن هذه الحملة العنصرية البشعة، وغيرها من المحاولات، تبقى من بين الأعمال التي شنت ضد اليسار الأمريكي بصفة عامة، وضد اليسار الأكاديمي الأمريكي بصفة خاصة، وما يجب تأكيده في هذا الصدد، هو أن فلسطينية سعيد ومحاولاته التي لا تعد ولا تحصى للدفاع عن الشعب الفلسطيني والتعريف بقضيته المشروعة والعادلة داخل القلع الأمريكية والأوروبية، هي من بين الدوافع الرئيسية التي أدت للهجوم عليه، وعلى أفراد عائلته في العديد من المرات، بل تعدى ذلك إلى حرق مكتبه الخاص في الجامعة.

وأما المقاومة الثقافية فهي " فعل المعارضة أو القدرة على أي منهما "، [٦] لقد ذهب بعض المنظرين إلى أن السياسة في جوهرها خطاب ثقافي، وإذا صح هذا الزعم، فإن إعادة كتابة الخطاب السياسي تعد فعلا سياسيا، وذلك لأن إعادة كتابة هذا الخطاب هي في جوهرها ما تسعى إلى تحقيقه المقاومة الثقافية، ومن ثمة، فإذا ما استخدمت ثقافة ما عن قصد أو بدون قصد لمقاومة أو لتغيير الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعمول بها، فإنها تكون بذلك قوة

قد تمكن المسود من الإطاحة بسيطرة السيد وإيديولوجيته، وبهذا تكون وظيفة المقاومة الثقافية " صورة من صور المقاومة المناهضة لمحو المسود ". [٧]

إن ممارسة الثقافة لمقاومة السائد مسألة ذات أهمية، فالثقافة معرفة تمكن صاحبها من السيادة أو السلطة من بسط سيادته وسلطته بشكل فعال، فقد استخدم المستعمر الغاشم معرفته بالثقافات المستعمرة لاحتكار تلك الثقافات وإخضاعها لسيطرته. ولهذا فإن المقاومة الثقافية قد تتمكن من أن تجعل من نفسها خطابا مضادا يقوم بتحويل ــ " المواجهة بين الواقع كما اصطنعه المستعمر والقيام بدحض هذا الواقع وهدمه "، [٨] ــ إلى وسيلة فعالة من وسائل المقاومة، ثم تحويلها إلى آلية فعالة من آليات التغيير الثقافي والسياسي.

ومن هنا ينشأ دور المثقف الأصيل كما يرى سعيد، كــ " الطعن في السلطة ووضعها موضع مسألة "، ولكن طريقة تعامل المثقفين مع مسألة القوة والسلطة تختلف من مثقف لآخر، ففي الوقت الذي كان فيه سعيد، يقاوم السلطة، ويشكك فيها من خلال قراءته "الطباقية " (التي تكشف عن الأصوات أو المعاني المتقابلة والمتصاحبة) لــ "الثقافة الرفيعة" أي "الأدب المعتمد"، في مقابل "الثقافة الشعبية"، [٩] إن الكرنفال (عناصر المهرجان الطقسي الشعبي) كما يصوره ميخائيل باختين: "على أنه عالم يقاوم الأفكار والأشكال والمفاهيم العامة السائدة كافة"، [١٠] والشئ الذي كان باختين يقاومه بالفعل هو النزعة التسلطية الستالينية.

ولكن السؤال المطروح بإلحاح شديد هو إلى أي حد يستطيع المثقف " يتوخى الصدق في حديثه إلى السلطة " ؟

يرى سعيد أن المثقف "هاو ذو وعي نقدي، وأنه يزعزع استقرار الوضع الراهن، ويقلب المزاعم الثقافية رأسا على عقب "، وهو أيضا " فرد وهب ملكة تمثيل أو تجسيد رسالة أو رؤية أو فلسفة أو رأي أو موقف، مع الإفصاح عن ذلك لجمهور ما "، إن المثقف عند سعيد يقوم بذلك "مستندا على المبادئ العالمية التي تصدق على جميع البشر كالحق في أن تعاملهم الدول والحكومات وفق معايير لائقة فيما يتعلق بالحرية والعدالة، وأن انتهاك هذه المعايير ــ عن عمد أو غير عمد ــ لابد من الكشف عنه وإثباته، والاستبسال في محاربته ".[١١]

وما يمكننا ملاحظته، هو أن الفضاء البيني الذي عاش فيه سعيد، حياته بين عالمين مختلفين، بوصفه عضو في هيئة التدريس بجامعة كولومبيا، وبصفته فردا منفيا، هو الذي شكل نص وموضوع

هويته، ومن ثمة جوهر نصوص كتاباته وأعماله، هذه المفارقة التي تنطوي عليها هوية سعيد كانت بمثابة القوة المحركة التي اكتسبت كتاباته قوة تأثيرها الفكرية، ولقد أفضت حياة سعيد في المنفى إلى صياغة المفاهيم التي اسماها " نزعة الاحتفاء بعالم الدنيا " و" نزعة الاحتفاء بعالم الحس " و" روح الهواية "، وهي مفاهيم دحض بها ادعاءات ثقافية ومظالم اجتماعية وسياسية، يمثل المثقف عند سعيد " رسالة فردية، وقوة لا تلين، بوصفها صوتا ملتزما واضح المعالم، جدير بالاعتراف به مع عدد كبير من القضايا التي تتصل في نهاية الأمر بالتنوير والتحرر والحرية ". [١٢]

إن تعيين موقع لنشاط المثقفين على هذا المنوال هو العامل الذي يوجه منهج سعيد في التعامل مع المستشرقين والمستعمرين، مع الثقافة والقضايا السياسية. المثقف عند سعيد ينبغي أن يكون صاحب " وعي نقدي "، وعي لا يكون حبيس إيديولوجية ما أو حزب معين، حتى يتمكن من إعادة النقد إلى العالم والبحث عن حرية الرأي والتعبير.

وتتجلى قوة تأثير المقاومة الثقافية عند سعيد في قدرة المثقف على أن " يرد بالكتابة " على كتابة الإمبريالية الاستعمارية، أو تتجلى في قدرته على " أن ينطق بالصدق في حديثه إليها عن الظلم جوهريا "، فالمثقف عنده، " ليس من دعاة المهادنة ولا التهدئة، ولا هو من بناة الإجماع، بل هو شخص يرتهن وجوده كله وكينونته كلها بامتلاكه حسا نقديا، أي وعيه بأنه يرفض الوصفات السهلة، والقوالب اللفظية المستهلكة، وهو لا يرفض ذلك رفضا سلبيا، بل يترجمه إلى فعل يعبر عنه على الملأ ". [١٣] ولا ينبغي أن يكون لدى المثقف " وعي نقدي " يرفض الخطاب الاستعماري فحسب، بل ينبغي عليه أيضا أن يتغلب على صعوبة فهم " الشروط التي لابد من استيفائها حتى تكون المعرفة ممكنة ". [١٤]

وبهذا تكون نظرية سعيد في المقاومة الثقافية، قد وضعت للإطاحة بالافتراضات المتعلقة بدور المثقف في الحياة العامة، لأن اهتمام سعيد كان موجها إلى الظروف المادية المحيطة بالتفكير السياسي والثقافي، مع تركيزه على السلطة الاستعمارية وخطابها، لأن المثقف يجب أن يمثل " التحرر والتنوير... وخبرات الفقراء، والمحرومين من التمثيل، ومن لا حولة لهم ولا قوة ".[١٥] وما دفع سعيد لوضع الخطاب الاستعماري موضع المسألة، وما دفعه إلى ضم نظريته في المقاومة الثقافية إلى نص هويته في نسيج واحد، هو الاحتلال الاستعماري لفلسطين، لا سيما بعد حرب الأيام الستة في سنة ١٩٦٧، وما هويته إلا نص من نصوص مرتبط بالنصوص التي كتبها، والتي كانت صوتا فصيحا عن هذه الهوية المركبة حقا، حيث نجده يقوا: " الحياة في المنفى هي عقل شتاء، فيه تدنو شفقة الصيف والخريف، وكذلك الطاقة الكامنة في الربيع، ولكنهما لا يدنوان بما يكفي لأن يكونا في متناول اليد "، لعل عبارات سعيد هذه تعني أن الحياة في المنفى تسير وفق تقويم سنوي مختلف عن المألوف، حيث

عدد الفصول فيه، وكذا استقرار الحياة والعيش في الوطن، إن المنفى كما يقول: " حياة تجري في خارج إطار الحالة الاعتيادية التي تكون عليها الأشياء، إنها حياة ترحال يهيم فيها المرء على وجهه، حياة بعيدة عن المركز، حياة طباقية تتصاحب فيها معان متضادة، ولكن ما إن يبدأ المرء في الاعتياد عليها حتى تندلع قوى زعزعة الاستقرار الكامنة فيها ".[١٦]

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أردد فقرة من أهم ما كتبه الدكتور مريد البرغوتي، شهادته حين أعتبر أفكار إدوارد سعيد " تملأ الدنيا ولا تنتهي، ولا سبيل أمامنا إلا أن نستعيد أفكاره إلا بالاستمرار في الحياة، ولكن بشرط أن نحب الحياة، وأن نكون دائما، قادرين على انتقادها، وأن لا نتخلى أبدا عن حقنا في الاعتراض، وفي إعادة النظر فيما نرى ونقرأ ونسمع، وأن لا نكتفي بأن نبتسم لكل من شاء أن يصورنا كما يحلو له، وعلى النحو الذي يريد، فالواجب الأخلاقي يقتضي أن يدرك المصور أننا أيضا ننظر إليه، ونلتقط له الصور...غطاء البيانو يهبط ببطء ومهابة، لكن موسيقى إدوارد سعيد لا تزال تملأ مسامع محبيه وتملأ مسامع الكون ".[١٧]

هوامش البحث ومصادره:

١ــ حوار مع إدوارد سعيد، في مجلة الشباب المصرية، يوليو ٢٠٠٣.

٢ ــ إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط١، ٢٠٠٤، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص ٢٧.

٣ ــ ماجدة الجندي، "من عمق القلب وخارج المكان"، إدوارد سعيد عربي بالاختيار، الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧، ص ٣٠.

٤ــ إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط١، ٢٠٠٤، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص٢٧ ــ ٢٨.

٥ ــ فخري صالح، إدوارد سعيد، دراسة وترجمات، ط ١، ٢٠٠٩، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص٤٩ ــ ٥٠.

6 - Webester’s Encyclopedic Unabridged Dictionary Of English, N.Y.: Gramercy Books 1989

7 - Barsamian D. and Edward Said, Culture and Conversations With Edward Said, Cambridge: Resistance: South End Press, 2003, P. 159.

8 - Terdiman S. Discourse, Counter In Nineteenth Century France. Ithaca & London: Cornell U.P. 1985, P. 13.

9 - Edward Said , The World , the text and the critic, Cambridge, Mass: Harvard, U.P. 1983, P. 173.

10 - Bakhtin M. Rabelais and his World, Trans Helene Iswolsky, Bloomington, IN: Indiana U.P. 1984.

11 - Edward Said, Representations Of the Intellectual, N. Y. Vintage Books, 1994, P. 28.

12 - Edward Said, Representations Of the Intellectual, N. Y. Vintage Books, 1994, P. 23.

13 - Edward Said, The World , the text and the critic, Cambridge, Mass: Harvard, U.P. 1983, P. 182.

14 - Edward Said, Representations Of the Intellectual, N. Y. Vintage Books, 1994, P. 113.

15 - Edward Said, The Mind Of Winter, Reflections On Life In Exile, Harper’s Magazine 269, 1984, P. 55.

١٦ ــ مريد البرغوتي، مؤتمر بجامعة طليطلة باسبانيا تكريما لإدوارد سعيد في نوفمبر ٢٠٠٣. Universidad de Castillo la Mancha))